

أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي وكبراه

أ/ بوكعبر بلقرد

أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي وكبراه

أ/ بوكعبر بلقرد [1]

إن كتاب «عمدة أهل التحقيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد» المعروف «شرح كبرى السنوسي» للإمام السنوسي نفسه، وهي عبارة عن شرح متن عقيدي بعنوان «عقيدة أهل التوحيد المخرجة بعون الله من ظلمات الجهل وربقة التقليد المرغمة بفضل الله أنف كل مبتدع عنيد[2] » أو السنوسية الكبرى الذي افتتحه الإمام بالكلام على خطوة التقليد في العقيدة، ثم ذكر جملة من الأدلة المخرجة من التقليد إلا أنه يتوقع إيرادات المنكرين فيبادر بإيرادها والجواب عليها بأسلوب الفنقلة (فإن قلت،قلت) وكأنه يخاطب حاضرا، ثم ذكر صفات الله الواجبة مع أدلة كل منها من غير أن يفوته ذكر اعتراض وشبهات من ينكرها وبنفس الأسلوب المذكور سابقا أطال في بيان صفة العلم، ثم نبّه أن ضد ما سبق من الصفات مستحيل في حق الله، ثم ذكر الجائز في حقه تعالى كالرؤية وخلق العباد وأفعالهم وبعثة الرسل، إلاّ أنه أطال في مسألة الرؤية وخلق الأفعال ردا على المنكرين لها وكل هذا بالأسلوب المذكور، ثم تعرض لنبوة نبينا صلى الله عليه وسلم وأدلتها وتكلم على المعجزة هل دلالتها عقلية أم عادية أم وضعية؟ ثم تكلم على معجزة القرآن ثم ختم بالكلام على السمعيات: الحشر والنشر وعذاب القبر والجنة والنار...إلخ. وهذه العقيدة إذا استثنينا مبحث إيمان المقلد لا تختلف عن كثير من العقائد التي كانت قبلها كالبرهانية وعقيدة ابن الحاجب،بل هي في بعض فصولها شبيهة لبعض تلك العقائد خاصة عقيدة إمام الحرمين المسماة بـ "اللمع" ولا تتميز عقيدة الإمام السنوسي إلا بحسن الترتيب والتخليص وإيراد شبه المخالفين مع أجوبتها، ولكن لما شرح الإمام عقيدته الكبرى جاء بما يدل على إمامته في هذا الفن حيث أحسن تلخيص أقوال من سبقه في كل مسألة ذات

1 - من كتاب سيصدر للمؤلف عن وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، عنوانه مع ابن يوسف السنوسي الإمام، في إطار تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية (1432هـ-2011م).

2 - الظاهر أن الإمام استوحى هذا العنوان من الإمام ابن مرزوق الحفيد في كتابه العقيدي : «التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد».

أقوال، وأكثر مناقشتهم فيما خالفهم فيه حتى إنه في بعض الفصول ربما يسأم القارئ من طولها، وكل هذا من غير أن يفوته الإستطراد إلى مسائل تفسيرية وتاريخية وبيانية وبلاغية.والغريب هو وصفه لشرحه هذا بالمختصر كما في قوله :« في هذا المختصر لئلا نخرج فيه عن الغرض»، إشارة منه إلى أن ما في رأسه أكبر.

نسبة الكتب إلى الإمام :

مما لا شك فيه أن هذا الكتاب من تصنيف الإمام السنوسي لما تواتر عنه ذلك وقد ذكره الإمام في شرحه على الجزائرية، ونقل عنه الأئمة والعلماء نصوصا في كتبهم مع عزوهم إليه تلك النصوص كما صنع الإمام الحافظ الزبيدي في شرح كتاب "قواعد الإعتقاد من كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي" وكذا صنع شراح "المقدمة العقائدية من متن ابن عاشر"، وشراح "نظم جوهرة التوحيد" وغيرهم كثير وبالجملة فلا سبيل لإنكار نسبة الكتاب إلى الإمام السنوسي ولو على سبيل المكابرة والعناد.

وهذا وقد شرح هذه العقيدة جملة من العلماء يصعب عدّهم إلا أنه يبقى شرح الإمام أقوى وأكبر الشروح الموجودة لهذه العقيدة وأكثرها علما، وإليك البيان:

أولا: شرح اليوسي[1] :

وهو في حجم شرح الإمام، وبعد التأمل فيه وجدته حاشية على شرح الإمام السنوسي مع شيء من الاختصار وزيادة الإيضاح لبعض المسائل التي ذكرها الإمام السنوسي في شرحه قال اليوسي[2] :«..فهذه نفائس الدرر في حواشي المختصر جعلته بعون الله تعالى للشرح تذييلا ولدقائق نكته تبيانا وتكميلا وربما ذكرت أشياء بينة المسالك لافتقار المبتدئ مثلي إلى ذلك..»

ثانيا: حاشية الرماصي :

هي في حقيقة الأمر اختصار لحاشية اليوسي على شرح الإمام مع زيادات واستدراكات، على الشيخ اليوسي قال العلامة الرماصي[3] :« هذه فوائد لخصتها من حاشية الشيخ البركة العالم العلامة سيدي الحسن اليوسي رحمه الله وربما زدت لها فرائد طرزتها...»

1 - هو الإمام الحسن بن مسعود أبو علي اليوسي (1102-100هـ) فقيه مالكي أصولي له الكوكب الساطع شرح جمع الجوامع للسبكي وغيره أنظر الأعلام للزركلي 2/223 وغيرها.
2 - حاشية اليوسي على شرح الكبرى لوحة 1.
3 - كفاية المريد اللوحة 1 وهو الإمام مصطفى بن عبد الله بن محمد مؤمن (...1724-هـ) المعسكري الجزائري الذي لقبه متأخرو المالكية بالمحقق له كفاية شرح عقيدة التوحيد «شرح فيه صغرى السنوسي وحاشية على التتائي على خليل وغير ذلك انظر أعلام الجزائر ص152.

قلت: واضح مما سبق أن شرح الإمام السنوسي لعقيدته الكبرى هو أصل هاتين الحاشيتين.

ثالثا: شرح الشيخ عليش [1]:

بمراجعة هذا الشرح ومقارنته بشرح الإمام، ندرك أن شيخ عليش لم يزد في شرحه إلا شرح المفردات الواردة في العقيدة الكبرى، ثم يعقد بعد هذا الشرح اللفظي تنبيهات هي في الغالب عين كلام الإمام السنوسي في شرحه للكبرى وفي النادر هي من كلام اليوسي أو الرماصي، ولولا هذه التنبيهات لم يكن لهذا الشرح قيمة علمية كبيرة، والله أعلم.

رابعا : حاشية الهكاري :

فهي شرح على شرح الإمام للكبرى وليس حاشية عليه لا شيء زائد على ما قاله الإمام باستثناء عبارات الهكاري التوضيحية وإليك البيان: قال العلامة الهكاري:«بسم الله الرحمن الرحيم (الحمد لله...إلخ) إثر الحمد المقيد على المطلق لأن له مزية لأنه إذا وقع لا يقع إلا واجبا بخلاف المطلق لا يقع إلا مندوبا وجرى على خصوص التقييد ليفيد براعة الإستهلال بالنسبة للشرح والفن إذ قوله (شرح) يفيد الأول وقوله (من سواطع البراهين) يفيد الثاني...»[2] .

خامسا : حاشية الحامدي[3] :

شرح فيها معظم ما جاء في شرح الإمام للكبرى وهي مطبوعة على هامش شرح الشيخ لكبراه، وهذا الشرح أكثر أهمية من حاشيتي الرماصي واليوسي لما فيه من استدراكات وزيادات علمية، ودون هاتين الحاشيتين حاشية الهكاري، رحم الله الجميع.

وإذا عرفت هذا أدركت أهمية شرح الإمام السنوسي، هذا بالإضافة إلى ما فيه من نقول عن أعلام جزائرية كتبهم اليوم في حكم المفقودة كابن دهاق وابن شريف وابن زكري التلمسانيين وغيرهم، حيث وجدناهم فيما نقله عنهم الإمام يقررون العقيدة وفق ما يقتضيه الدليل من غير تقليد لأحد، بل وجدناهم يناقشون أمثال الرازي وإمام الحرمين، ويأخذون من أقوالهم ويردون عليهم متى لم يوافقهم، مما يدل دلالة

1 - هو الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش (1217هـ-1299هـ) فقيه مالكي تولى مشيخة الأزهر له تصانيف كثيرة منها شرح على مختصر خليل انظر الزركلي 6/19 وغيره.
2 - شرح الهكاري على شرح الكبرى للإمام السنوسي لوحة1.
3 - هو الشيخ إسماعيل بن موسى بن عثمان (1316-1226هـ) المصري المالكي له «الرحلة الحامدية» وغيرها انظر الأعلام 1/328.

واضحة على استقلالية وأصالة المدرسة الأشعرية المغربية في تقرير علم العقيدة، وبهذا يكتسب شرح الإمام لكبراه أهمية كبيرة ،والله أعلم.

وقد طبع شرح الشيخ قديما (1317هـ) ثم أعيد طبعه وبهامشه حاشية الحامدي، إلا أن هذه الطبعة نفدت منذ زمان، بحيث صار الكتاب في حكم المخطوط ندرة إلا أني بفضل الله وقفت على نسخة من الطبعة الأخيرة ينقصها أربعون صفحة من البداية، وبمقارنة هذه الطبعة مع النسختين الخطيتين وجدت فيها فروقا طفيفة أعرضت عن ذكرها لئلا أثقل الكتاب بالهوامش. وطبع سنة 2006م في دار الكتب العلمية ولم أقف على هذه الطبعة رغم الجهود التي بذلتها من أجل جلب نسخة من سورية أو لبنان، وفي ظني أن هذه الطبعة لا تغني عن غيرها لقلة معرفة المشارقة بتراث علماء الجزائر الذين اعتمدهم الإمام، ثم من تأمل تحقيق شرح الوسطى المطبوع في دار الكتب العلمية لا يشك في هذا، والله أعلم.

السنوسي بين شرح الكبرى وشرح الجزائرية أو المنهج السديد في شرح كفاية المريد:

شرح الإمام السنوسي منظومة الشيخ أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري بطلب منه، والظاهر أن هذا الشرح جاء بعد شروح الإمام على عقائده الكبرى والوسطى، وهذا لأنا وجدناه يذكر فيه شرحي الكبرى والوسطى قال الإمام في المنهج السديد:« وقد تعرضنا في شرحَي عقيدتنا الكبرى والوسطى...»[1].

وبالتأمل بين الكتابين وجدنا بعض فصول المنهج السديد كادت تكون منقولة بالحرف من شرح الكبرى وتارة يكون مبحث القول السديد أكثر أدلة أو أكثر ضبطا للأقوال مما في شرح الكبرى، هذا بالإضافة إلى مسائل تطرق لها في القول السديد لم يعرّج عليها في الكبرى بالمرة، بحكم أن صاحب النظم ذكرها في نظمه كمسألة حوض النبي صلى الله عليه وسلم، ومسألة الأرزاق والإمامة وغير ذلك .

السنوسي بين الكبرى والوسطى :

الشائع أن الإمام اختصر العقيدة الكبرى في الوسطى، وأنه اختصر شرح الكبرى في شرح الوسطى بحيث أن كل ما ورد في شرح الوسطى ورد في شرح الكبرى، إلا أن هذا الشائع ليس بصحيح البتة، وهذا لأننا وجدنا الإمام السنوسي يذكر في شرح الوسطى تفاصيل لم يشر إليها في شرح الكبرى ولا في شرح الجزائرية، كما فيها مباحث لم ترد في الكبرى كمبحث الحكم العقلي والعادي وغير ذلك، لذا استقر لدي أن الإمام أنشأ العقيدة الوسطى نشأة جديدة. ويشهد لكون الوسطى غير مختصرة من الكبرى بالإضافة إلى

1 - المنهج السديد ص251.

ما سبق كون الوسطى في حجم الكبرى تقريبا، قال الإمام السنوسي في مقدمة شرح الوسطى:«قد منّ الله عليّ في هذه الأيام القريبة بوضع عقيدة يظهر أنها أخصر من الأولى وأقرب، ثم مع اختصارها ففيها من تحقيق البراهين... وفيها من التنبيه على جزيئات من العقائد مما لا يوجد في كثير من المطولات فضلا عن المختصرات »[1].

فأنت ترى أن الإمام غير جازم في كون الوسطى أقصر من الكبرى ولو كانت مختصرة منها بلا شك، وبالمقارنة بين العقيدتين نتبين أن الوسطى أكثر تهذيبا للمسائل المبحوث فيها وأقل تكرارا من الكبرى وربما كان هذا هو سر إحالة السنوسي تلميذه الملالي عليها دون الكبرى وشرحها لما ناظر اليهودي.

الظاهر أن الإمام لم يعد أثناء شرحه للوسطى إلى شرحه للكبرى ولم يذكر منه في شرح الوسطى إلا ما علق بذهنه، إذ الشرحان لا يلتقيان إلا في بعض النقول وبعض الإستدلالات والتي غالبا ما يقول بعدها الإمام «واستوفينا البحث في شرحنا على الكبرى» أو عبارة مماثلة، مما يحمل على الظن أن شرح الوسطى هو الجزء المتمم لشرح الكبرى خاصة في مبحث إيمان المقلد حيث أورد فيه أدلة لم يذكرها في شرح الكبرى مما يدل على بطلان القول أنه تراجع عما ورد في الكبرى في مسألة إيمان المقلد، وهذا الصنيع إن دل على شيء فإنما يدل على تملك الإمام زمام علم التوحيد كما لا يخفى، والله أعلم.

نعم لا يشك من اطلّع على عقائد الإمام وقارن مضامينها أن الصغرى هي مختصر للوسطى كما أن صغرى الصغرى هي مختصر الصغرى.

وبالجملة فشرح الجزائرية أقرب إلى شرح الكبرى من حيث الأدلة المستدل بها والأقوال المنقولة عن العلماء، بينما شرح الوسطى أقرب إليه من حيث الموضوعات المتناولة، بحيث لا يغني واحد عن الآخر والكل في نفس الحجم تقريبا، والله أعلم.

تنبيـه :

لم يطرق الإمام السنوسي في كتبه العقائدية لمسائل كثيرة، درج علماء الكلام على ذكرها في كتبهم كمسألة مفهوم الإيمان وزيادته والإستثناء فيه والإرجاء، والأرزاق والآجال وغير ذلك، بل جل بحوثه في كتبه تدور حول إثبات وجود واجب الوجود ووحدانيته، وبقية صفاته الواجبة، وإثبات نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم، وكأنه يشرح في كتبه الشهادتين لا إله إلا الله محمد رسول الله.

1 - شرح الوسطى ص23 بتصرف قليل.

مصادر السنوسي في شرح الكبرى :

اعتمد الإمام السنوسي رحمه الله في شرح كبراه على مصادر كثيرة ومتنوعة يمكن إجمالها فيمايلي:

أولا: الكتاب والسنة على ضوء ما كان عليه السلف الصالح :

بتتبع ما كتبه الإمام السنوسي يتضح أن الإمام يعتمد الكتاب والسنة في تقرير الأحكام والإستدلال لها كقوله في شرح الصغرى:« والحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وجوب النظر...» ولهذا وجدناه كثير التنويه بالكتاب والسنة كقوله في شرح صحيح البخاري :« أفضل ما يشتغل به من وفقه الله وهداه علم يزكي به نفسه ويقمع به شيطانه وهواه وذلك مقصور على علمي الكتاب والسنة... ثم لا يتم علمهما في مثل زماننا هذا إلا بمعرفة أقوال خدّامها من نّور الله بصيرته وأصلح علانيته وسريرته من علماء السلف الصالح ثم من تلاهم في الجد والإجتهاد والغيرة على الشريعة أن تنتهك بالمخالفة وسوء الفهم والإعتقاد من علماء التابعين وتابعيهم...»[1].

ثانيا : الإجمــاع :

يعتمد الإمام السنوسي كثيرا على الإجماع في الرد على مخالفيه كقوله في شرح الكبرى :« وهذا القول لإخفاء في طلانه وانعقاد الإجماع على خلافه إذ معلوم قطعا أن عقائد الإيمان ليست كلها ضرورية».

وقد عرّف الإجماع بقوله في شرح الكبرى :« والإجماع والمراد اتفاق المجتهدين من أمة نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم في عصر على أمر، ومن رأى أنه لا ينعقد إلا ببقاء إجماعهم إلى انقراض عصرهم يزيد في التعريف إلى انقراض العصر، ومن يرى أن الإجماع لا ينعقد مع سبق خلاف مستقر من ميت أو حي وجوّز وقوعه يزيد «لم يسبقه خلاف مجتهد مستقر».

والظاهر أن الإجماع المعتبر عنده ما كان عليه السلف قبل ظهور البدع لذا وجدناه كثيرا ما يقيد الإجماع بذلك كقوله في شرح الكبرى:« وقد اتفق السلف قبل ظهور البدع على أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن».

ثالثـا : كتب علم الكـلام :

لقد استفاد الإمام السنوسي مما كتبه العلماء الذين سبقوه في علم الكلام إلا أنه منها ما صرح به أثناء شرحه ومنها ما لم يصرح به، وإنما اكتفى بعزو القول إلى صاحب الكتاب ولم يفعل هذا إلا مع كتاب «أبكار الأفكار» للآمدي، وأما التي صرح بها فكثيرة منه :

1 - شرح صحيح البخاري للإمام السنوسي (مخطوط) لوحة2.

1. كتاب **"الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الإعتقاد"** لإمام الحرمين هو مطبوع مرارا بل ومترجم إلى الفرنسية من قبل الأستاذ لوسياني وهذا الكتاب له عدة شروح منها: شرح إسحاق إبراهيم بن يوسف بن دهاق وعنوانه **"نكت الإرشاد في الإعتقاد"**. ومنها شرح ابن شريف التلمساني المسمى بـ « شرح الأسرار العقلية». ومنها «شرح المقترح» لأبي العز المظفر بن علي الشافعي المعروف بالمقترح.

والظاهر أن السنوسي اعتمد هذه الشروح الثلاثة إذ هو كثير النقل منها.

2. كتاب **"الشامل"** له أيضا (مطبوع).

3. كتاب **"طوالع الأنوار"** للقاضي البيضاوي (مطبوع).

4. كتاب **"الشامل"** لابن عرفة نقل الإمام منه مرتين وتعقبه فيها (لم أقف عليه).

5. كتاب **"معالم الرازي"»** مطبوع بعنوان «أصول الدين» وله شروح كثيرة منها شرح للإمام عبد الله ابن محمد شرف الدين الفهري التلمساني وقد نقل الإمام السنوسي من هذا الشرح الشيء الكثير.

6. كتاب **"الأربعين في أصول الدين"** للإمام الرازي (مطبوع ومتداول).

هذا بالإضافة إلى كتب التفاسير التي اعتمدها في هذا الشرح كتفسير الزمخشري وتفسير ابن عطية الأندلسي وكتاب البرهان في أصول الفقه لإمام الحرمين والشفاء للقاضي عياض وغيرها كثير.

وبمراجعة هذه الكتب نتبين وكأنّ الإمام السنوسي يورد النصوص من ذاكرته إذ قلما يأتي باللّفظ كما هو في الكتاب وهذا دليل لكثرة حفظه.